جواهر متلألئة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام في مدرسة النبوة

المدرس الدكتور
هدى محمد سلمان
جامعة بغداد ـ مركز البحوث التربوية والنفسية

مكث رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة المكرمة فترة من الوقت كان يواجه خلالها حرباً إعلامية من قبل رجال قريش، بهدف إقامة جدار بين رسول الله صلى الله عليه وآله والمجتمع كمحاولة لفصل رسول الله صلى الله عليه وآله اجتماعياً تحت مبررات مختلفة.

وكان من وسائل هذه الحرب القذرة بثّ الشائعات والأضاليل الباطلة والمزيفة في أوساط الرأي العام القرشي والمكّي منها: أنّ رسول الله أبتر لا عقب له ولا خلف. ولقد سرت هذه الشائعة بين المجتمع المكي ممّا ترك في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بعض الحزن والتأثر.

ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل هذه الأكذوبة، وبشّر رسوله بأن أعطاه فاطمة سيدة نساء العالمين وسيكون أبناؤه منها وهم اللذين سيشكلون امتداد الرسالة من بعده.

وفي السنة الثالثة للهجرة في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، جاء الوعد الإلهي بأن ولد الإمام الحسن عليه السلام ممّا بعث في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله تباشير الفرح والسرور بأن حقق الله عز وجلّ وعده وبأن ردّ كيد الأعداء من مشركي مكة، ولذلك بقدر ما كان مولد الإمام الحسن عليه السلام يضفي على رسول الله صلى الله عليه وآله السعادة والبشرى، كانت زعامات قريش وأقطاب مكة تعض الأنامل وتتقطع من الغيظ والحقد لفشل المؤامرة الإعلامية ضد رسول الله صلى الله عليه وآله..

وكانت الولادة المباركة في المدينة المنورة حيث استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله سبطه الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة وبدا عليه الارتياح وقام من ساعته إلى بيت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام ونادى يا أسماء أين ولدي؟ فأسرعت به أسماء بنت عميس إلى جده المصطفى صلى الله عليه وآله وقد لفّ الحسن عليه السلام في خرقة، فقدمته إلى جدّه صلى الله عليه وآله فاستقبله والبشرى تلوح على وجهه، فأخذ ابنه برفق، وضمه إليه وراح يلثمه بعطفه وحنانه، ثم بدأ يقطر أذنيه بالإيمان، ويعصر في روحه آيات التكبير والتهليل، فكان غذاؤه الأول: الله أكبر.. الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.. أذّن رسول الله صلى الله عليه وآله في أذنه اليمنى ثم أقام في اليسرى، لتكون هذه الكلمات القصار، الكثيرة والكبيرة بمحتوياتها أنشودة الإمام أبي محمد الحسن عليه السلام في كل مراحل حياته يحاول غرسها بكل ما لديه من جهد في أعماق النفوس لتكون أنشودة الحياة جيلاً بعد جيل. وجاء الإمام علي عليه السلام إلى فاطمة وسألها عن اسم المولود، أجابته: ما كنت لأسبقك، فأردف عليّ عليه السلام قائلاً: وما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء الإمام علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله عن اسم المولود، فأجاب رسول الله صلى الله عليه وآله! وما كنت لأسبق ربّي. فنزل جبرائيل من السماء على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له: إن الجليل يقرؤك السلام ويقول لك اسمه حسن، فكان كذلك. ثم عق عنه وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضةً فكان وزنه درهمان وشيئاً، وأمر فطلي رأسه طيباً، وسُنّت بذلك العقيقة والتصدّق بوزن الشعر وكنّاه (أبا محمد). ولا كنية له غيرها.

ألقاب الامام الحسن عليه السلام: أشهر ألقابه: التقي، والزكي، والسبط، السيد، والمجتبى، والطيب، والولي.

زوجات الامام المجتبى: تزوج (أم إسحاق) بنت طلحة بن عبيد الله، و(حفصة) بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، و(هند) بنت سهيل بن عمرو، وجعدة بنت الأشعث بن قيس، وهي التي أغراها معاوية بقتله فقتله بالسم.

وقد تحدث المؤرخون عن زوجات الإمام الحسن عليه السلام وأكثروا ومال أكثرهم إلى المبالغة في تعدادهن مبالغة لا تعتمد على أساس معقول...

أولاده: كان له خمسة عشر ولداً ما بين ذكر وأنثى وهم:

زيد، أم الحسن، أم الحسين، أمهم أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجية.

الحسن، أمه خولة بنت منصور الفزارية.

عمر والقاسم وعبد الله، عبد الرحمن، أمهم أم ولد.

الحسين الملقب بالأشرم وطلحة وفاطمة أمهم أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي.

أم عبد الله وفاطمة وأم سلمة ورقية، لأمهات شتى.

أوصافه وأخلاقه:

لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن عليّ عليهما السلام خلقاً.

وقالوا: (كان أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، كث اللحية، جعد الشعر ذا وفرة، كان عنقه إبريق فضة، حسن البدن، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الكراديس، دقيق المسربة، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، مليحاً من أحسن الناس وجهاً. أو كما قال الشاعر:

ما دب في فطن الأوهام من حسنٍ ... إلا وكان له الحظ الخصوصيّ

كأنّ جبهته من تحت طرّته ... بدر يتوجّه الليل البهيميّ

قد جلّ عن طيب أهل الأرض عنبره ... ومسكه فهو الطيب السماويّ

حاز على صفات جده رسول الله صلى الله عليه وآله في خَلقِه وخُلُقِه حتى أن المسلمين إذا اشتاقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نظروا إلى ابنه الحسن عليه السلام ويقول أنس: (لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن علي عليه السلام وقد أورد الشيخ المفيد (رحمه الله)

في الإرشاد أنه: كان الحسن بن علي عليه السلام يشبه النبي صلى الله عليه وآله من صدره إلى رأسه والحسين يشبهه صلى الله عليه وآله من صدره إلى رجليه.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله للحسن ذات مرة: (أشبهت خَلقي وخُلقي).

ما رآه أحد إلا هابه كان في شمائله آية الإنسانية الفضلى، ولا خالطه إنسان إلا أحبه، ولا سمعه صديق أو عدو وهو يتحدث أو يخطب فهان عليه أن ينهي حديثه أو يسكت.

وروى المؤرخون عن تواضعه وكرم أخلاقه عشرات الروايات فمن ذلك انه اجتاز على جماعة من الفقراء وقد جلسوا على التراب يأكلون خبزاً كان معهم فدعوه إلى مشاركتهم فجلس معهم وقال: (إن الله لا يحب المتكبرين، ولما فرغوا من الأكل دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم من عطائه، ومرة أخرى مر على فقراء يأكلون فدعوه إلى مشاركتهم، فنزل عن راحلته وأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وأعطاهم، وقال: (اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ونحن نجد ما أعطيناهم). وكان من كرمه أنه أتاه رجل في حاجة، فقال له: (أكتب حاجتك في رقعة وارفعها إلينا). قال: فرفعها إليه فأضعفها له، فقال له بعض جلسائه: (ما كان أعظم بركة الرفعة عليه يا ابن رسول الله!). فقال: (بركتها علينا أعظم، حين جعلنا للمعروف أهلاً. أما علمتم أن المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة، فأما من أعطيته بعد مسألة، فإنما أعطيته بما بذل لك من وجهه وعسى أن يكون بات ليلته متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء لا يعلم بما يرجع من حاجته ابكأية الرد، أم بسرور النجح، فيأتيك وفرائصه ترعد وقلبه خائف يخفق فإن قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه، فإن ذلك أعظم ممّا نال من معروفك).

وأعطى شاعراً فقال له رجل من جلسائه: (سبحان الله أتعطي شاعراً يعصى الرحمن ويقول البهتان!). فقال: (يا عبد الله إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر).

وجاءه بعض الأعراب. فقال: (أعطوه ما في الخزانة!.. فوجد فيها عشرون ألف درهم. فدفعت إليه، فقال الإعرابي: (يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي، وأنشر مدحتي فقال الإمام الحسن عليه السلام:

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل

تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسل

ومرّ به رجل من أهل الشام ممن غذّاهم معاوية بالحقد والكراهية لعليّ وآل عليّ فجعل للإمام الحسن عليه السلام السب والشتم والإمام ساكت لا يتكلم وهو يعلم بأن الشامي لا يعرف عليّا وآل عليّ إلا من خلال الصورة التي كان معاوية بن هند يصورهم بها وعندما انتهى الشامي من حديثه بما فيه من حلف وفظاظة ابتسم إليه وتكلم معه بأسلوب هادئ ينم عن سماحة وكرم متجاهلاً كل ما سمع وما رأى، وقال: (أيها الشامي أظنك غريباً فلو أنك سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، وإن كنت جائعاً أطعمناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، أو طريداً آويناك)، ومضى يتحدث إلى الشامي بهذا الأسلوب الذي يفيض بالعطف والرحمة حتى ذهل الشامي وسيطر عليه الحياء والخجل وجعل يتململ بين يديه يطلب عفوه وصفحه ويقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وهكذا كان في جميع مواقفه مثالاً كريماً للخلق الإسلامي الرفيع الذي دعا إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. لقد قابل جميع ما كان يوجه إليه من الأذى والمكروه من أخصامه وحساده بالصبر والصفح الجميل حتى اعترف له ألد أخصامه وأنكرهم بذلك، فقد روى المؤرخون أن مروان بن الحكم أسرع إلى حمل جنازته ومشى مع المشيعين والكآبة بادية عليه، فقال له أبو عبد الله الحسين عليه السلام: (إنك لتحمل جنازته وقد كنت بالأمس تجرعه الغيظ، فقال: لقد كنت أفعل ذلك مع من يوازي حمله الجبال.

وروى المؤرخون صوراً كثيرة من ألوان بره وكرمه ومعروفه التي كان يغرق بها على السائلين والفقراء والمحرومين لإنقاذهم ممّا كانوا يعانون من آلام الحاجة والبؤس ابتغاء وجه الله وثوابه لا للجاه ولا للدنيا ولا تدعيم ملك وسلطان ولا لمكافأة على المديح والثناء كما كان يصنع معاوية وغيره من الأمويين والعباسيين، ومن يتلذذون بالمديح والإطراء والجاه والسلطان. وأخبار كرمه كثيرة لسنا بسبيل استقصائها، وهذا مقدار يسير من أحاديث الرواة عن كرمه ومعروفه وإن كان الكثير ممّا يرويه الرواة يخضع للنقد والحساب، إلا أن القليل المتفق عليه بينهم يكفي لأن يجعله في القمة بين أجواد العرب الذين لا يرون للمال وزناً ولا يحسبون له حساباً.

مكانة الحسن عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله:

علاقة رسول الله صلى الله عليه وآله بابنه الحسن عليه السلام فاقت حدود العلاقة العائلية الموروثة كعلاقة الأب بابنه لأنها متوجة بحب الله عز وجل وآمره وأن حب رسول الله صلى الله عليه وآله لابنه الحسن عليه السلام إنما هو - أيضاً - من حب الله له، وهذا ما دفع باتجاه تعزيز العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وآله وابنه الحسن عليه السلام، ولذلك كان المصطفى الأكرم صلى الله عليه وآله يرعى تربية الحسن عليه السلام رعاية مميزة وخاصة، فكان يغذيه بآدابه ومعارفه وكما كان يخشى عليه من كل مكروه لحبه له وخوفه عليه لأنه أمانة الله عنده ووصي من بعده والامتداد الطبيعي للرسالة الإسلامية.

ففي ذات يوم وبينما الإمام الحسن عليه السلام كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله إذ عطش الحسن عليه السلام واشتد ظمأه فطلب له النبي صلى الله عليه وآله ماءً فلم يجد فأعطاه لسانه فمصه حتى روي.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قالت الجنة يا رب زينتني فأحسنت زينتي، فأحسن أركاني فأوحى الله تبارك وتعالى إليها أني قد حشوت أركانك بالحسن والحسين وجنبيك بالسعود من الأنصار وعزتي وجلالي لا يدخلك مرائي ولا بخيل.

الحسن عليه السلام في مدرسة النبوة:

امتازت السنوات القليلة التي عاشها الحسن عليه السلام في كنف جده المصطفى صلى الله عليه وآله قبل عروجه إلى الرفيق الأعلى، أنها كانت بمثابة حجر الأساس في بناء شخصيته كما أنها الفترة المشرقة والذهبية في حياة الإمام الحسن عليه السلام في الالتصاق برسول الله صلى الله عليه وآله عن قرب.

فالحب المتميز لم يكن من جانب الرسول صلى الله عليه وآله فقط بل كان الإمام الحسن عليه السلام أشد حباً وتعلقاً بجده وهذا ما يظهر بوضوح في اهتمام الحسن عليه السلام في المداومة على رؤية جده المصطفى صلى الله عليه وآله والالتصاق به أكبر مدة فحينما كانت الزهراء عليها السلام تأخذ الحسنين عليهما السلام إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فيأتياه وهما في شوق شديد إليه فيتسابقا في الوصول إليه، فإذا وصلا إليه ضمّهما وقبّلهما وأجلسهما في حجره فيجلس الحسن عليه السلام على فخذه الأيمن والحسين على فخذه الأيسر فيشعران بالأمان والحنان والعطف. بل إنه في بعض الليالي التي كانت تأتي بهما الزهراء عليها السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيمكثان طويلاً فتضطر فاطمة عليها السلام إلى العودة إلى البيت وحدها، ويبقى الحسنان مع جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله فيتوسدا اليدين الكريمتين لرسول الله صلى الله عليه وآله ويناما إلى جنبه صلى الله عليه وآله.

ولعل من الصور الرائعة في حجم الصلة الوثيقة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه الحسن عليه السلام يذكرها بعض الرواة في علاقة الحسن عليه السلام بجده صلى الله عليه وآله، فلقد كان عليه السلام وعلى صغر سنه، يأتي إلى مجلسه صلى الله عليه وآله فيصغي بسمعه إلى حديث جده صلى الله عليه وآله وهو يبث رسالة الله في الناس، وبعد أن يستمع إلى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله ينطلق مسرعاً إلى أمه فاطمة عليها السلام فيخبرها بلسان فصيح صادق كلّ ما دار في حديث الرسول صلى الله عليه وآله مع الناس، فيأتي الإمام علي عليه السلام فتخبره فاطمة عليها السلام بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله في المجلس فيسأل الإمام علي عليه السلام عن الذي أخبرها بذلك، فتقول: ابنك الحسن عليه السلام.

فتخفّى عليّ عليه السلام يوماً في الدار ليستمع إلى ما يقوله الحسن عليه السلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله فدخل الحسن عليه السلام وقد جاء من مجلس الرسول صلى الله عليه وآله فأراد أن يلقي لوالدته عليها السلام فارتج عليه الأمر، فعجبت أمه من ذلك فقال الحسن عليه السلام: لا تعجبي يا أماه فإن كبيراً يسمعني واستماعه قد أوقفني فخرج علي عليه السلام إليه فضمه وقبّله.

ومن جهة ثانية نرى أن الإمام الحسن عليه السلام كان منذ صغره يتلقى علوم الوحي من رسول الله صلى الله عليه وآله

إمامته عليه السلام:

بعد فاجعة شهادة أمير المؤمنين عليه السلام تولّى الإمام الحسن عليه السلام دفنه.

وبعد أن انتهى المسلمون من مراسم العزاء قام الإمام الحسن عليه السلام في المسجد خطيباً، وقال: أيُها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل إلينا، ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطَهّرهم تطهيراً.

وأنا من أهل بيت افترض الله مودّتهم على كلِّ مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، فاقتراف الحسنة مَوَدّتُنا أهل البيت.

وهكذا انهالت الجماهير إلى بيعة الإمام الحسن عليه السلام، عن رضاً وطيب نفس، لأنهم رأوا فيه المثال الفاضل لمؤهلات الخليفة الحق.

فيجب أن يكون قِمّة في المكرمات والفضائل، أكفأ الناس وأورعهم وأعلمهم والحسن عليه السلام كذلك.

قد توفرت فيه شروط والي أمر المسلمين بأكمل وجه وأحسنه، وهو صاحب

النص المأثور عن الرسول العظيم: (الحَسَن والحسين إمامان قَامَا أو قعدا).

وبايعه الناس بعد أن حضّهم عليها خيار الصحابة والأنصار، وكان للإمام الحسن عليه السلام حُبٌ في القلوب نابعٌ عن صميم قلوب المسلمين.

وقد اتّخذ أصله عن حُبِّ النبي صلى الله عليه وآله له، وحُبِّ الله تعالى لمن أَحَبه النبي صلى الله عليه وآله.

أضف إلى ذلك، ما كانت تقتضيه الظروف، من رجل يقابل معاوية ومن التفّ حوله من الحزب الأموي الماكر، وله من كفاءة القيادة، وسداد الرأي، والمودة في قلوب المسلمين.

لذلك أسرع المسلمون إلى بيعته قائلين: ما أَحَبّه إلينا، وأوجب حقّه علينا، وأحقه بالخلافة.

وجاء في مقدمة الزعماء المجاهدين الأنصاري الثائر، قيس بن سعد، فبايعه وهو يقول: أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسُنّة نبيه، وقتال المحلين.

فقال له الإمام عليه السلام: عَلى كتاب الله وسنّة نبيه، فإنهما يأتيان على كلِّ شرط.

وكلما دخل فوج يبايعونه قال لهم: تبايعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت.

وتمّت البيعة في العقد الثالث من شهر رمضان المبارك، بعد أربعين عاماً من الهجرة النبوية.

عبادته: إن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم وكان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً، ولا يمر في شيءٍ من أحواله إلا ذكر الله سبحانه وكان أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً وكان إذا بلغ المسجد رفع رأسه ويقول: الهي ضيفك ببابك يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم).

وقيل أنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر

القبر بكى، وإذا ذكر البعث بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغش عليه منها، وإذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله تعالى الجنة وتعوذ بالله من النار. وكان إذا توضأ، أو إذا صلّى ارتعدت فرائصه واصفر لونه من خشية الله تعالى.

كرم الامام الحسن عليه السلام:

الكرم والسخاء من أبرز الصفات التي تميّز بها الإمام الحسن عليه السلام، فكان المال عنده غاية يسعى من خلالها إلى كسوة عريان، أو إغاثة ملهوف، أو وفاء دين غريم، أو إشباع جوع جائع، وإلخ.

هذا وعرف الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بكريم أهل البيت، فهو الذي قاسم الله أمواله ثلاث مرّات، نصف يدفعه في سبيل الله و نصف يبقيه له، بل وصل إلى أبعد من ذلك، فقد أخرج ماله كلّه مرتين في سبيل الله ولا يبقي لنفسه شيء، فهو كجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وهو سليل الأسرة التي قال فيها ربّنا وتعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

والشواهد لهذه الصفة المتميّزة عند الإمام عليه السلام:

١- روي أنّ الإمام الحسن عليه السلام خرج مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام و عبد الله بن جعفر (رضوان الله عليه) حُجّاجاً، فَجَاعوا وعطشوا في الطريق، فمرّوا بعجوز في خباء لها، فقالوا: (هَلْ مِن شراب)؟

فقالت: نعم هذه شَاة احلبوها، واشربوا لبنها، ففعلوا ذلك، ثمّ قالوا لها: (هلْ مِن طَعَام)؟ فقالت: لا، إلاّ هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتّى أُهيئ لكم شيئاً تأكلون.

فقام إليها أحدهم فذبَحَها وكشطها، ثمّ هَيّأت لهم طعاماً فأكلوا، فلمّا ارتحلوا

قالوا لها: (نحن نَفَرٌ من قريش، نريد هذا الوجه، فإذَا رَجعنا سالمين فألِمّي بنا فإنّا صانعون إليكِ خيراً)، ثمّ ارتحلوا.

وأقبل زوجُها، وأخبَرَتْه عن القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: وَيْحكِ، تذبحين شاتي لأقوام لا تعرفينهم، ثمّ تقولين: نَفَرٌ من قريش.

ثمّ بعد مدّة أَلجَأتْهُم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها، فمرّت العجوز في بعض سِكَك المدينة، فإذا بالحسن عليه السلام على باب داره، فَسَلّمَت عليه، فعرفها الإمام عليه السلام، وأمر أن يُشتَرَى لها ألف شاة، وتُعطَى ألف دينار.

وأرسل معها غلامه إلى أخيه الحسين عليه السلام، فقال: (بِكَمْ وصلك أخي الحسن)؟ فقالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر عليه السلام لها بمثل ذلك.

ثمّ بعثَ عليه السلام بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال: بكم وَصَلك الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة، فأمر لها عبد الله بن جعفر بمثل ذلك، فَرجِعَت العجوز إلى زوجها بذلك.

٢- تنازع رجلان، أحدهما أموي يقول: قومي أسمح، والآخر هاشمي يقول: بل قومي أسمح، فقال أحدهما: فاسألْ أنت عشرة من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومي، يريد أن يسأل كلّ عطاء عشرة من قومه، فينظروا أيّ القومين أسخى وأسمح يداً، ثمّ إذا عرفوا ذلك أرجع كلّ منهما الأموال إلى أهلها، كلّ ذلك شريطة أن لا يخبرا من يسألاه بالأمر.

فانطلق صاحب بني أمية فسأل عشرة من قومه فأعطاه كلّ واحد منهم ألف درهم، وانطلق صاحب بني هاشم إلى الإمام الحسن عليه السلام فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثمّ أتى إلى الإمام الحسين عليه السلام فقال: (هل بدأت بأحد قبلي)؟ قال: بدأت بالحسن، قال: (ما كنت أستطيع أن أزيد على سيّدي شيئاً)، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم.

فجاء صاحب بني أمية يحمل عشرة آلاف درهم من عشرة أنفس، وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسَين، فغضب صاحب بني أمية، حيث رأى فشله في مبادراته القبلية، فردّ الأوّل حسب الشرط ما كان قد أخذه من بني أمية فقبلوه فَرحِين، وجاء صاحب بني هاشم إلى الإمام الحسن والحسين عليهما السلام يردّ عليهما أموالهما فأبيا أن يقبلاهما قائلين: (ما نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق).

استراتيجية الصلح عند الإمام الحسن عليه السلام:

قبل التحدث عن مبرّرات صُلح الإمام الحسن عليه السلام لا بد من توضيح الاستراتيجية أنها: فن توظيف عناصر القوة للأمّة أو الأمّم، لتحقيق أهداف الأمّة، أو التحالف في السلم والحرب، وهو أيضاً فن القيادة العسكرية في ساحة المعركة. لماذا الصلح؟ قَبِل الإمام الحسن عليه السلام الصلح مع معاوية للأسباب الاتية: السبب الأول: إن نظرة أهل البيت عليهم السلام إلى الحكم كانت تنبع من أنه وسيلةً لتحقيق قيم الرسالة. فإذا مالَ الناس عن الدين الحق، وغلبَت المجتمع الطبقات الفاسدة، وأرادت تحويل الدين إلى مطية لمصالحهم اللاَّمشروعة. فليذهب الحكم إلى الجحيم، لتبقى شعلة الرسالة متّقدة، ولتصب كلُّ الجهود في سبيل إصلاح المجتمع أولاً، وبشتى الوسائل المُتاحة. وقد أشار الإمام علي عليه السلام عن أسلوب الحكم قائلاً: (والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. ولكن كلّ غدره فُجرة وكلّ فُجرة كُفرة، ولكلٍّ غادرٍ لواءٌ يُعرف به يوم القيامة، والله ما استُغفِل بالمكيدة، ولا استُغمِز بالشديدة). أما عن نظرته عليه السلام إلى الحكم ذاته، فقد رُوي عن عبد الله بن العباس أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخصف نعله، فقال عليه السلام لي: (مَا قِيمَة هذا النعل؟) فقلت: لا قِيمَة لها. فقال عليه السلام: (والله لَهِيَ أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلاَّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً). السبب الثاني: لقد عاش الإمام الحسن عليه السلام مَرحلة هبوط الروح الإيمانية عند الناس، وبالذات في القبائل العربية التي خرجت من جَوِّ الحجاز، وانتشرت

في أراضي الخير والبركات، فنسيت رسالتها أو كادت. فهذه كوفة الجند التي تأسست في عهد الخليفة الثاني لتكون حامية الجيش، ومنطلقاً لفتوحات المسلمين الشرقية، أصبحت اليوم مركزاً لصراع القبائل، وتسيس العسكر، وأخذ يُتبَع من يُعطِي أكثر. فبالرغم من وجود قبائل عربية حافظت على ولائها للإسلام والحق، ولخط أهل البيت عليهم السلام، إلاّ أنَّ مُعظم القبائل التي استوطَنَت أرض السواد حيث الخصب والرفاه بدأت تبحث عن العطاء. حتى أنَّهم تفرّقوا عن القيادة الشرعية، وبدأوا يراسلون المتمردين في الشام حينما عرفوا أنَّ معاوية يبذل أموال المسلمين بلا حساب. بل إنَّك تجد ابن عمٍّ الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن العباس قائد قوّات الطليعة في جيشه عليه السلام يلتحق بمعاوية طَمَعاً في دراهمه، البالغة مليون درهم. ونجد الكوفة تَخون مرة أخرى الإمام الحسين عليه السلام، حينما يبعث إليهم ابن عَمِّه مسلم بن عقيل، فيأتيهم ابن زياد ويمنّيهم بأن يزيد في عطائهم عشرة. فإذا بهم يميلون إليه، ويُقاتلون سِبط رسول الله وأهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) بِأبْشَع صورة. ودون أن يسألوا ابن زياد عمَّا يعنيه بكلمة (عشرة)، فإذا به يزيد في عطائهم عشرة تُميرات فقط، ولعلَّهم كانوا يمنون أنفسهم بعشرة دنانير. لقد تعبت الكوفة من الحروب، وبدأت تفكر في العيش الرغيد، وغاب عنهم أهل البصائر الذين كانوا يحومون حول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويذكّرون الناس باليوم الآخر، ويبيّنون للناس فضائل إمامهم الحق.

لقد غاب عنهم اليوم عمَّار بن ياسر الذي كان ينادي بين الصفيْن في معركة صِفّين: الرواحَ إلى الجنة. ومالك الأشتر الذي كان لعليٍ عليه السلام مثلما كان عليٌّ لرسول الله صلى الله عليه وآله بطلاً مقداماً، وقائداً ميدانيّاً مُحنَّكاً. وغاب ابن التيهان الذي يعتبره الإمام علي عليه السلام أخاً له، ويتأوَّه لغيابه.

بلى، لقد غاب أهل البصائر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وأنصار علي عليه السلام، الذين كان أمير المؤمنين عليه السلام يعتمد عليهم في إدارته للحروب. وغاب القائد المقدام، البطل الهمام، الإمام علي عليه السلام أيضاً، بعد أن أنهى سيف الغدر حياته

الحافلة بالأسى.

فإنه عليه السلام كان قد صعد المنبر قبيل استشهاده، وقد نشر المصحف فوق رأسه، وهو يدعو ربّه ويقول: (مَا يُحبَس أَشقاكم أن يَجيء فيقتلني، اللَّهُمَّ إني قد سئِمتُهم وسئِمُوني، فأرِحْهم منّي، وأرِحْني مِنهم). وبالرغم من أن الإمام عليّاً كان قد جهَّز جيشاً لمقارعة معاوية قبيل استشهاده، وهو ذلك الجيش الذي قاده من بعده الإمام الحسن عليه السلام. إلاَّ أنَّ خَور عزائم الجيش، واختلاف مذاهبه، وخيانة قُوَّاده، كان كفيلاً بهزيمته، حتى ولو كان الإمام علي عليه السلام هو الذي يقوده بنفسه. إلاَّ أن التقدير كان في استشهاد البطل، وأن يتمَّ الصلح على يد نَجلِه العظيم الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وآله، أنَّ الله سوف يُصلح به بين طَائِفَتين من أُمَّته.

ويشهد على ذلك ما جاء في حديث مأثور عن الحارث الهمداني، قال: لما مات علي عليه السلام جاء الناس إلى الحسن عليه السلام وقالوا: أنت خليفة أبيك ووصيِّه، ونحن السامعون المطيعون لك، فمرنا بأمرك. فقال عليه السلام: (كَذبتُم، والله ما وفيتُم لِمَن كان خيراً منِّي، فكيف تَفُون لي؟، وكيف أطمئنُّ إليكم ولا أثق بكم؟ إن كنتُم صادقين فموعدٌ ما بيني وبينكم مُعَسكر المدائن، فَوافوا هناك). وماذا كان يمكن للإمام الحسن عليه السلام أن يصنعه في مثل هذه الظروف المعاكسة؟ فهل يسير في جيشه بسيرة معاوية، ويوزع عليهم أموال المسلمين، فمن رغب عنه عالجه بالعسل المسموم؟ أم يسير عليه السلام بسيرة أبيه حتى ولو كلَّفه ذلك سُلطته. لقد ترك عليه السلام السلطة حين علم بأنها لم تعد الوسيلة النظيفة لأداء الرسالة، وأن هناك وسيلة أفضل وهي الانسحاب إلى صفوف المعارضة، وبَثّ الروح الرسالية في الأمّة من جديد، عبر تربية القيادات، ونشر الأفكار، وقيادة المؤمنين الصادقين، المعارضين للسلطة، وتوسيع نطاق المعارضة، وهكذا فعل عليه السلام. السبب الثالث: إن شروط الصُلح التي أملاها الإمام عليه السلام على معاوية، وجعلها مقياساً لسلامة الحكم، تشهد على أنه عليه السلام كان يخطط لمقاومة الوضع الفاسد، ولكن عبر وسائل أخرى. لقد جاء في بعض بنود الصُلح ما يلي:

١ - أن يعمل معاوية بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢- ليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده له عليه السلام ثم لأخيه الحسين عليه السلام.

٣- الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شَامِهِم، وعِرَاقِهم، وحِجَازهم، ويَمَنِهم.

٤- أنَّ أصحاب عليٍّ وشيعته آمنون على أنفسهم، وأموالهم، ونسائهم، وأولادهم.

٥- أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) غائلة، لا سِرّاً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

فإن نظرة خاطفة لهذه الشروط تهدينا إلى أنها اشتملت على أهم قواعد النظام الإسلامي من دستورية الحكم على هدى الكتاب والسُّنَّة. وأنه مسؤول عن توفير الأمن للجميع، وبالذات لقيادة المعارضة، وهم أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله. وقد قبل معاوية بهذه الشروط، مما جعلها أساساً للنظام عند الناس، وقد وجد الإمام عليه السلام بذلك أفضل طريقة لتبصير الناس بحقيقته، وتأليب أصحاب الضمائر والدين عليه، حين كان يخالف بعض تلك الشروط. وقد تحمَّل الإمام الحسن عليه السلام عناءً كبيراً في إقناع المسلمين بالصلح مع معاوية، حيث أنَّ النفوس التي كانت تلتهب حماساً، والتي كانت معبأة نفسيّاً ضد معاوية، كانت تأبى البيعة معه. على أنَّ القشريين من طائفة الخوارج كانت ترى كفر من أسلم الأمر إلى معاوية، وقد قالوا للإمام الحسن عليه السلام: كَفَرَ والله الرَّجُلُ. مُعارضة الصحابة: خطب الإمام الحسن عليه السلام بعد صلحه مع معاوية في الناس قائلاً: (أيُّها الناس، إنكم لو طلبتم ما بين جابلقا وجابرسا رَجُلاً جَدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتم غيري وغير أخي. وإنَّ معاوية نازعني حقّاً هو لي، فتركتُه لصلاح الأمّة، وحقن دمائها.

وقد بايعتموني على أن تسالموا من سَالَمتُ، وقد رأيت أن أُسالمه، وأن يكون ما صنعتُ حجةً على من كان يتمنَّى هذا الأمر، وإنْ أدري لعلَّه فتنة لكم، ومتاع إلى حين). ومع ذلك فقد عارضه بعض أفضل أصحابه في ذلك، فقال حجر بن عدي له: أما والله لَوَددتُ أنك مُتَّ في ذلك اليوم، ومتنا معك ولم نَرَ هذا اليوم، فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبُّوا. ويبدو أن الإمام عليه السلام كره أن يجيبه في الملأ، إلاَّ أنه حينما خلا به قال عليه السلام: (يا حجر، قد سمعتُ كلامك في مجلس معاوية، وليس كلُّ إنسان يُحب ما تُحب، ولا رأيه كرأيك، وإنِّي لم أفعل ما فعلتُ إلاَّ إبقاءً عليكم، والله تعالى كلَّ يوم هو في شأن). وكان سفيان من شيعة أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام، ولكنَّه دخل على الإمام عليه السلام وعنده رهط من الناس فقال له: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين. فقال عليه السلام له: (وعليكَ السَّلام يا سفيان). يقول سفيان: فنزلتُ فعقلت راحلتي، ثم أتيته فجلست إليه، فقال عليه السلام: (كيفَ قُلتَ يا سفيان؟). قال: قلتُ: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين. والله بأبي أنت وأمِّي أذلَلْتَ رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة، وسَلَّمت الأمر إلى اللَّعين ابن آكلة الأكباد، ومعك مئة ألف كلُّهم يموت دونك، وقد جمع الله عليك أمر الناس. فقال عليه السلام: (يا سفيان، إنَّا أهل بيت إذا علمنا الحقَّ تمسَّكنا به، وإنّي سمعت عليّاً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تذهب الأيَّام واللَّيالي حتَّى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه.

ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر، وإنَّه لمعاوية، وإنّي عرفتُ أنَّ الله بالغ أمره). ثم أذَّن المؤذِّن، فقمنا إلى حالبٍ يحلبُ ناقته، فتناول الإناء فشرب قائماً، ثمَّ سقاني، وخرجنا نمشي إلى المسجد، فقال عليه السلام لي: (ما جاء بك يا سفيان؟). قلت: حُبُّكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق. فقال عليه السلام: (فأبشرْ يا سفيان، فإنِّي سمعت عليّاً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يرد عليَّ الحوض أهل بيتي ومَن أحبَّهم من أُمَّتي كهاتين - يعني

السبّابتين -، أو كهاتين - يعني السبابة والوسطى -، إحداهما تفضل على الأخرى. أبشِرْ يا سفيان، فإنَّ الدنيا تسع البرَّ والفاجر، حتَّى يبعث الله إمام الحقِّ من آل محمَّد صلى الله عليه وآله. وفي بعض الأحيان كان الإمام الحسن عليه السلام يصد على أصحابه ببيعة معاوية. فحين دخل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري - صاحب شرطة الخميس الذي أسَّسَه الإمام علي عليه السلام - على معاوية، قال له معاوية: بايع. فنظر قيس إلى الحسن عليه السلام، فقال: يا أبا محمَّد، بايعت؟ فقال له معاوية: أما تنتهي؟ أما والله إنِّي.... فقال له قيس: ما شئت، أَمَا واللهِ لَئِن شئت لتناقضت به. فقام إليه الحسن عليه السلام، وقال له: (بَايعْ يا قيس). فبايَعَ. ما أكرم أبا محمَّدٍ الحسن المجتبى عليه السلام، وأسخى تضحيته حين أقدم على الصلح الذي اعتبره بعض حواريِّه ذُلاً، وزعَمَهُ أعداؤه جبناً واستسلاماً، ولم يكن إلاَّ أروع صور النصر على الذات، ومقاومة نزوة الهوى، والمحافظة على دماء المسلمين، وتحقيقاً لكلمة الرسول الصادق المصدَّق صلى الله عليه وآله حين قال: (إنَّ ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ يصلح به بين فئتين من المسلمين). فلولا أن الحسن كان قدوة الصلاح، وأسوة التضحيات، وجماع المكرمات، وكان بالتالي الإمام المؤيَّد بالغيب، لتمزَّقت نفسه الشريفة بصعود معاوية أريكة الحكم، وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله: (إذا رأيتُم معاوية هذا على منبري فاقتلوه، ولن تفعلوا).

ولولا اتِّصال قلبه الكبير بروح الربِّ إذاً لمات كمداً، حيث كان يرى تقهقر المسلمين، وصعود نجم الجاهلية الجديدة. ولولا حلمه عليه السلام العظيم، النابع من قوة إيمانه بالله، وتسليمه لقضائه، إذاً ما صبر على معاوية، وهو يرقى منبر جَدِّه، ويمزِّقَ منشور الرسالة، ويسبُّ أعظم الناس بعد الرسول صلى الله عليه وآله. بلى، ولكنَّ الحسن عليه السلام آثر الآخرة على الدنيا.

شهادة الإمام الحسن عليه السلام ودفنه:

دَعَت السياسة الرشيدة للإمام الحسن عليه السلام، ومكانته المُتَنامية في الأمّة، معاوية إلى أن يشك في قدرته على مناوأته، واستئثاره بقيادة الأمّة.

حيث إنه ما خطى خطوة تُالف قِيَمَ الحق، أو مصالح الأمّة، إلا وعارضه الإمام عليه السلام واتّبعته الأمّة في ذلك. ففشلت مساعي معاوية وخابت آماله، فدبّر حيلة كانت ناجحة إلى أبعد الحدود، تلك هي الفتك بحياة الإمام عليه السلام عن طريق السُّم. فبعث معاوية إلى عاهل الروم يطلب منه سمّاً فتّاكاً، فقال ملك الروم: إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا. فراسله معاوية يقول: إن هذا الرجل هو ابن الذي خرج بأرض تهامة - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله - خرج يطلب ملك أبيك، وأنا أُريد أن أدس إليه السمّ، فأُرِيح منه العباد والبلاد.

بَعَث ملك الروم إلى معاوية بالسمّ الفتاك، فَدَسّه إلى الإمام عليه السلام عن طريق جعدة، الزوجة الخائنة التي كانت تنتمي إلى أسرة فاجرة.

حيث اشترك أبوها في قتل أمير المؤمنين عليه السلام، وأخوها في قتل الإمام الحسين عليه السلام فيما بعد.

وفي ذلك النهار حيث كان قد مضى أربعون يوماً أو ستون على سقيه السُّم، أتمّ عليه السلام وصاياه التي أوصى بها إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام،وعلم باقتراب أجله.

فكان عليه السلام يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: (اللّهُمّ إني أحتسب عندك نفسي، فإنها أعزُّ الأنفس عليّ، لم أُصَب بمثلها، اللّهُمّ آنِسْ صرعتي، وآنس في القبر وحدتي، ولقد حاقت شربته - أي معاوية -، والله ما وفيَ بما وعد، ولا صَدَق فيما قال).

وكان عليه السلام حين التحق بالرفيق الأعلى، يتلو آياتٍ من الذكر الحيكم.

وكانت شهادته عليه السلام في السابع من صفر ٥٠ هـ.

دفنه عليه السلام:

وقامت المدينة المنورة لتُشيّع جثمان ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي لم يزل ساهراً على مصالحهم قائماً بها أبداً.

وجاء موكب التشييع يحمل جثمانه الطاهر إلى الحرم النبوي، ليدفنوه عند

الرسول صلى الله عليه وآله، و ليجدّدوا العهد معه، على ما كان قد وصّى به الإمام عليه السلام. فلم يدفن الامام الحسن عليه السلام عند قبر جده المصطفى صلى الله عليه وآله. ولولا وصية من الإمام الحسن عليه السلام إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام ألاّ يُراق في تشييعه ملء محجمةِ دمٍ، لَمَا ترك بنو هاشم لبني أمية في ذلك اليوم كِيَاناً.

ولولا أن الإمام الحسين عليه السلام نادى فيهم: (الله الله يا بني هاشم، لا تضيّعوا وصية أخي، واعدلوا به إلى البقيع، فإنه أقسم عليّ إن أنا مُنعت من دفنه عند جدّه إذاً لا أُخاصم فيه أحداً، وأن أدفنه في البقيع مع أُمّه).

هذا وقبل أن يعدلوا بالجثمان، كانت سهام بني أمية قد تواترت على جثمان الإمام عليه السلام، وأخذت سبعين سهماً مأخذها منه.

فذهبوا إلى مقبرة البقيع، وقد اكتظّت بالناس، فدفنوه فيها، حيث الآن يُزار مرقده الشريف عليه السلام.

وهكذا عاش السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وآله نقيّاً، طاهراً، مَقهوراً، مُهتَضَماً، ومضى شهيداً، مظلوماً، مُحتَسِباً.

قائمة المصادر والمراجع

١- حياة الإمام الحسن بن علي: باقر شريف القرشي، دار البلاغة،ط١، ١٩٩٣.

٢- صلح الحسن، راض ال ياسين، مؤسسة النعمان، ١٩٩١.

٣- الفتنة، هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت.

٤- ولادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، عبد الحافظ البغدادي، ٢٠١٣.